

الفصل الخامس

القيم والتربية فى المثالية المعاصرة

تهتم الفلسفة بدراسة القيم الإنسانية ، وفلسفة القيم تعنى البحث فى المثل العليا من حق وخير وجمال ، والحق هو موضوع علم المنطق ، والخير هو موضوع علم الأخلاق ، والجمال هو موضوع علم الجمال . وعلم المنطق يضع القواعد التى تعصم العقل من الوقوع فى الزلل ، أى أنه يبحث فيما ينبغى أن يكون عليه التفكير السليم . وعلم الأخلاق يضع المثل العليا التى ينبغى أن يسير سلوك الإنسان بمقتضاها ، أى يبحث فيما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان ، وعلم الجمال يضع المستويات التى يقاس بها الشئ الجميل ، وهذه العلوم الثلاثة المعيارية تؤلف ما يطلق عليه فلسفة القيم^(١).

وترتبط القيم بالتربية حيث أن التربية تهدف إلى تمكين المتعلم من قيم معينة أو غرس قيم محددة لدى المتعلمين ، فمن القيم تشتق أهداف التربية ، وتصبح مسئولية المدرسة والوالدين هى تعليم الطفل بعض القيم الإنسانية ، فهناك هرم من القيم وواجب التربية هو مساعدتها على فهم القيم وتأصيلها والتعايش معها سواء كانت قيم خلقية أو جمالية .

وبالرغم من إختلاف رجال التعليم فى كثير من النواحي إلا أنهم جميعا يؤكدون على أهمية القيم مثل قيمة المعرفة والأدب والنظام ... وتظهر هذه القيم فى منهج المدرسة^(٢) ، " بل كل قرار يتخذه المربي يكاد يكون

(١) توفيق الطويل " أسس الفلسفة " مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٢) نيلر " أنثروبولوجيا التربية " ترجمة محمد منير مرسى ، عالم الكتب ، ص ١٤٠ .

منطويا على مسائل خاصة بالقيم سواء كان ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إن التربية تعتنى مباشرة بالقيم فى عدد من النقاط مثل أهداف التدريس وغيرها ثم إن بيان الإنسان لأهدافه التربوية هو فى الوقت ذاته بيان وإظهار وتوضيح لقيمه التربوية " (١) .

والقيم تنحصر فى الوجود كما ينبغى أن يكون ، والتربية هى التى تتكفل بتحقيق " الوجود كما ينبغى أن يكون " إلى " الوجود الفعلى " فتغير التربية الوجود الفعلى إلى الوجود كما ينبغى أن يكون .

ومن ناحية أخرى التربية هى جهد متواصل من أجل تحقيق القيم الإنسانية بين الأفراد من أجل إيجاد المجتمع الفاضل المثالى ، وبالتربية يتم ممارسة القيم فى الوجود الفعلى ولا تتحقق القيم إلا من خلال الحرية ، والحرية هى التى تخلع على وجودنا الإنسانى كل ما له من معنى وقيمة ، لأن الذات حينما تخلق الشخصية فى نفسها ، فإنها عندئذ تهب الكون معنى وتخلع على الحياة قيمة ، وعلى كل حال فإن الإنسان الحر إنما هو ذلك الإنسان الذى يعرف أن حياته ليست سوى تحقيق مستمر لكل القيم (٢) .

والقيم الخلقية تهدف إلى توجيه السلوك الإنسانى إلى الأفضل والمساهمة فى بناء شخصية الإنسان ، فالمربى يأخذ على عاتقه مهمة العمل بالقيم العليا فى تربية الإنسانية ، وما أحوجنا الآن إلى التربية الخلقية بعد ما تفككت الأسرة ، واندثرت القيم ، ومع الأسف الشديد " أن فلسفة الأخلاق قد أصبحت فى السنوات الأخيرة أقل مادة فلسفية تحظى باهتمام الباحثين

(١) John S. Brubacher. Modern Philosophies of Education , P.92.

(٢) زكريا إبراهيم " مشكلة الحرية " ، مرجع سابق ، ص ٢٣٦ .

وقد كانت مناهج التعليم - حتى الماضي القريب - تفسح لمادة الأخلاق مجالاً غير قليل ، ولكن الظاهر أن هذا المجال قد أخذ يضيق حتى اختفت أو كادت تختفى مادة الأخلاق من برامجنا التعليمية ، وأصبح الاهتمام بالمشكلات الخلقية مجرد حديث يتجاذبه رجالات التعليم والتربية " (١) .

واتفق المثاليون - بوجه عام - أن التربية ليست فقط تنمية العقل وتهذيبه بل يجب أيضاً أن تساعد الدارسين على أن مركز الأشياء يكون القيم الخالدة " ويكون الهدف من التربية عند المثاليين هو التهذيب الشخصي والخلقى " (٢) .

ومن هنا فإن المثالية المعاصرة تهتم بالقيم الخلقية ، باعتبارها قوة تدفع الحياة إلى الأفضل ، وليست القيم الخلقية بمعزل عن الحياة ، والحق أن القيم الخلقية تفرض على الإنسان المشاركة فى الحياة ، فليست القيم الخلقية بعض الأحكام الجاهزة بل هى تعلمنا وتدفعنا بحيث يكون سلوكنا فى المواقف سلوكاً جديداً ومبتكراً ، فالقيم الخلقية كفيلة بتحرير الإنسان والسمو به إلى مرتبه أسمى ومكانة عالية ، ومن هنا تأتى أهمية التربية الخلقية التى تعمل على غرس القيم الروحية فى نفوس الأفراد ، فالإنسان هو حامل القيم وهو الذى يعمل على تحويلها إلى ممارسة فعلية ، وقوة إنسانية تعمل على تهذيب الإرادة و تربية السلوك الإنسانى ، فتصبح القيم أفراداً تمشى على الأرض ، وتنتشر الإنسان من دنس الرذيلة إلى عالم الفضيلة ، ومن المرتبة الطبيعية الغريزية إلى المرتبة الإكسيولوجية " وهنا تتكشف لنا صلة الأخلاق بالتربية ، فإن الوظيفة الأولى للمربى إنما هى العمل على تفتيح ذهن الحدث أو الشاب للقيم الخلقية ، وكلما

(١) زكريا إبراهيم " المشكلة الخلقية " ، مرجع سابق ، ص ٦ .

(٢) Ozman , Samuel " Philosophical Foundation of Education " P.15.

زادت حساسية المربي نفسه للقيم كان تأثيره الخلقى على النشء أقوى وأفضل ، والحق أن للأخلاق الفلسفية وظيفة إيجابية إلى أعلى درجة : لأن واجبها أن تربي المربي نفسه حتى يصبح أهلا لتربية النشء وهذا مما فطن إليه أفلاطون من قبل حين قال " إن الأخلاق هي مربية الإنسانية بصفة عامة ، ومعنى هذا أن الأخلاق تضطلع بمهمة المساهمة فى إيقاظ الإحساس بالقيم لدى الإنسان ، ولابد أن يظل المربون قلة دائما ، ولكنهم بلا شك ملح الطعام على حد تعبير السيد المسيح ، لأنهم وحدهم الذين يرون ثم يعلمون الآخرين كيف يرون " (١) .

وفى هذا الفصل سوف نعرض لموقف المثالية المعاصرة عند كل من برجسون وكروتشة ولالاند وبرنشفك من التربية والقيم العليا من خلال التربية الخلقية والتربية الجمالية .

ويستهدف هذا الفصل دراسة القيم والتربية فى الفلسفة المثالية المعاصرة من خلال المحاور الآتية :

أولا : القيم الخلقية والتربية عند برجسون :

١ - الأخلاق المغلقة .

٢ - الأخلاق المفتوحة .

٣ - الحرية والتربية .

ثانيا : القيم والتربية عند كروتشه .

١ - قيمة الجمال .

٢ - قيمة الحق .

٣ - قيمة الخير .

٤ - قيمة المنفعة .

ثالثا : القيم والتربية عند لالاند .

رابعا : القيم والتربية عند برنشفك .

(١) زكريا إبراهيم " المشكلة الخلقية " ، مرجع سابق ، ص ١٥-١٦ .

أولاً : القيم الخلقية والتربية عند برجسون

ترتبط القيم الخلقية عند برجسون بنظرية التطور ، فما هو التطور عند برجسون ؟

يرى الفيلسوف الفرنسي هنرى برجسون " أن الكائن الحي يدوم ديمومة حقة فإنه يولد وينمو ويهرم ويموت " (١).

ولكن " النفس خالدة تبقى بعد الموت " (٢). " والحياة فى جوهرها صيرورة وبالنسبة للموجود الواعى - الإنسان - أن يوجد هو أن يتغير ، وأن يتغير هو أن ينضج ، وأن ينضج هو أن يخلق نفسه باستمرار " (٣). وبالتالي فالتربية ترتبط بالتطور كما ترتبط بالأخلاق والتطور عند برجسون " ترقى الكائن من التجانس إلى التنوع " (٤). وهو عكس التطور عند لالاند الذى يسير من " اللاتجانس إلى التجانس " (٥).

وعند برجسون الصلة وثيقة بين التطور والأخلاق فكما أن للتطور اتجاهين متميزين هما اتجاه الغريزة واتجاه العقل فكذلك يوجد اتجاهان متعارضان للأخلاق وذلك أنه فى الإمكان تصور العلاقة القائمة بين الفرد والمجتمع على نحوين مختلفين ، فالفرد قد يمثل لضغط المجتمع أو يعمل على تجاوز حدود الجماعة ، والمجتمع بطبيعته يرحب بالاتجاه الأول ، لأن من الضروري للمجتمع أن يحافظ على بقاءه ، ويعمل على تحقيق وحدته وتماسكها ، وهو من أجل ذلك يقوم على الضغط أو الإلزام

(١) يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " ، مرجع سابق ، ص ٤٤٤.

(٢) بنروبي " مصادر وتيارات الفلسفة فى فرنسا " ، مرجع سابق ، ص ٢٢٠-٢٢٢.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٤) مراد وهبة " المذهب فى فلسفة برجسون " ، مرجع سابق ، ص ١٤١.

(٥) بنروبي " مصادر وتيارات الفلسفة فى فرنسا " ، ص ٨٦ .

الذى يفرضه على الأفراد بجهاز من العادات، تتحصر مهمته فى صيانة كيان المجتمع فيكون الرباط الذى يجمع بين الأفراد مثل الرباط الذى يجمع بين خلايا الجسم الواحد أو بين نمل القرية الواحدة ، ويطلق برجسون على هذه الأخلاق اسم " الأخلاق المغلقة " (١٧) ، هذه الأخلاق هى فى جملتها عبارة عن عادات تفرضها الجماعة على الفرد ابتغاء المحافظة على المجتمع .

التربية هنا تعمل على غرس القيم والعادات التى تعمل على الحفاظ على المجتمع ، كما يقول برجسون : " إن ما اختزنه الطفل منذ بزوغ الوعى فيه ، وهو يختزن فى نفسه كل ما أكسبته إياه الإنسانية على مر القرون ، وقدمته له فيما تلقنه من علم وفرض عليه من تقاليد ، وفيما يحيط به من أعراف ومؤسسات بل وفى قواعد النحو ، ومفردات اللغة " وإشارات الكلام " (١٨) كل ذلك يشكل الفرد تشكيلاً على نحو يرضى عنه المجتمع . ويقول برجسون : " فقد درجنا على طاعة الآباء والمعلمين ، على أننا كنا نشعر تماماً أننا إنما نطيعهم لأنهم آبائنا ، ولأنهم معلمونا فليس سلطانهم ناشئاً إذن عن ذواتهم بقدر ما هو ناشئ عن مكانتهم بالنسبة إلينا ، فهم يحتلون منزلة ما ومن هذه المنزلة إنما يصدر أمرهم حاملاً من قوة النفوذ ما لا يتيسر له ، لو صدر عن غيرهم وبتعبير آخر كنا ننظر إلى هؤلاء الآباء والمعلمين على أنهم يعملون نيابة عن غيرهم ... وذلك هو المجتمع ... الذى يشبه الكائن الحى " (١٩) .

(١) مراد وهبة " المذهب فى فلسفة برجسون " ، مرجع سابق ، ص ١٤١ .

(٢) برجسون " منبع الأخلاق والدين " ترجمة سامى الدروبي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف

والنشر ، ١٩٧١ ، ص ٩١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣ .

فالحياة الاجتماعية طائفة من العادات المتأصلة تفي بحاجات الجماعة "وبعض هذه العادات أمر ، وأكثرها عادات طاعة ، سواء أكانت الطاعة لشخص يأمرنا بالنيابة عن المجتمع ، أم كانت لأمر غير شخصي يصدر عن الجماعة نفسها ... وكل عادة من عادات الطاعة هذه تضغط على إرادتنا وهكذا نشعر أننا ملزمون شأننا في كل عادة من العادات " (١).

فالمجتمع وهو يرسم للفرد منهاج حياته ، ولا يستطيع الفرد إلا أن يخضع لأوامره ، فالمجتمع قد رسم لنا الطريق ، والتربية هنا تعنى تشبع الفرد بالقيم والعادات السائدة في المجتمع ، إما عن طريق المدرسة أو المنزل أو الوسائل الاجتماعية المتاحة وتكون مهمة التربية وهدفها المحافظة على المجتمع .

" فالوظيفة الحيوية للأخلاق والتربية هي تسليم الثقافة ونقل القيم إلى رجال المستقبل الذين هم ورثتها الشرعيون ، فإن مهمة المفكرين والفلاسفة عندئذ تنحصر في العمل على تذكير الجيل الجديد بمعايير جماعته ولباب تراثها الحضاري وثمار قيمها الروحية " (٢) .

والواقع أن هناك ضربين من الأخلاق عند برجسون :

الأول : الأخلاق المغلقة ، والثاني الأخلاق المفتوحة .

الأخلاق المغلقة : وهي تمثل خضوع الفرد للمجتمع بما فيه من قيم وعادات ووسائل إعلامية ، وهنا الفرد يكون تابعا ومسايرا ومقلداً .

للآخرين، فالمجتمع هنا يفرض على الأفراد جهازا من العادات تكون مهمتها الحفاظ على المجتمع ، فالفرد هنا يجد نفسه بإزاء " ضغط " إجتماعي وعليه أن يحترم هذه القواعد وإلا تعرض لمجموعة من

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) زكريا إبراهيم " المشكلة الخلقية " مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

الجزاءات " المادية والأخلاقية ، وليست الأخلاق المغلقة سوى جهاز من العادات التى يجب على الإنسان أن يكتسبها ، وتنحصر مهمة هذا الجهاز فى صيانة كيان المجتمع ، والضمير هنا هو تنظيم التآزر الإجتماعى وتحقيق النظام الداخلى المطلوب فى كل جماعة قائمة بذاتها حتى يتسنى لها أن تقف صفاً واحداً فى وجه الأجنبي ، أو كتلة واحدة أمام العدو الخارجى . وهكذا نجد أن القاعدة الكبرى فى كل أخلاق مغلقة هى العمل على صيانة التقاليد النافعة للمجتمع ، وتوفير العادات الطيبة لسائر أفراد الجماعة حتى يتحقق التعاون الاجتماعى المنشود على الوجه الأكمل ، ومن هنا فإن المثل الأعلى للمجتمع المغلق فهو تهذيب أفراد تهذيباً اجتماعياً صالحاً يضمن للجماعة أسباب التعاون والتآزر .

وطاعة الواجب هنا هى فى صميمها مجرد عملية مقاومة للذات . والحق أن هذا التآزر الاجتماعى الذى تتطلبه حياة المجتمعات المغلقة يرجع إلى تلك الضرورة التى يجد المجتمع نفسه معها ملزماً للدفاع عن نفسه ضد الآخرين ، والحق أن هذا المجتمع يخشى على نفسه على أن ينصهر فى بوتقة المجتمعات الأخرى ، فيعمل على المحافظة على ذاته من خلال الضغط على الأفراد للتشبع بالعادات السائدة وتشربها والمحافظة عليها ونقلها إلى الآخرين صغار السن ، وهكذا يحافظ المجتمع على ذاته، ويحقق النظام داخله بمجموعة من الجزاءات لمن يخرج عن الواجب . بيد أن الفرد حينما يحقق سائر الواجبات أو الإلتزامات التى تفرضها عليه الأخلاق المغلقة فإنه لابد من أن يستشعر ضرباً من الراحة النفسية التى تشبه إلى حد كبير ذلك الشعور النفسى الذى يصاحب قيام الحياة العضوية بوظيفتها السوية ، وعلى الرغم من أن الإلزام هنا لابد من أن يتخذ طابع الأمر المطلق الذى لا موضع فيه للأخذ أو الرد إلا أن

الأخلاق المغلقة - مع ذلك - لابد من أن تبقى فى صميمها أخلاقاً
اجتماعية محضة تقوم على غريزة الحياة ، ومن ثم فإنها لا ترقى إلى
مستوى العقل بل تظل بالضرورة ذات طبيعة بيولوجية " (١) .

الأخلاق المفتوحة :

أما الأخلاق المفتوحة ليست وليدة ضغط اجتماعى بل هى صادرة عن
نزوع سام تتمثل فيه جاذبية القيم ، أو بالأحرى هى تعبير عن إستجابة
الفرد لنداء الحياة الصاعدة ، وذلك أن الحياة لا تريد أن تقف عند إنتاج
مجتمعات مغلقة وإلا لما اتصفت بالتطور ، ونحن هنا بإزاء أخلاق
إنسانية تدعونا إلى تجاوز حدود الجماعة ، والتعلق بواجبات سامية
تجهلها الأخلاق المغلقة الاجتماعية كالمحبة والتضحية وبذل الذات ،
وتتجه الأخلاق الاجتماعية نحو حماية جماعة واحدة من عدوان غيرها
ويكون مثلها الأعلى التضامن الاجتماعي والعدالة ، ونجد أن الأخلاق
المفتوحة تتجه نحو العمل لصالح البشرية ، ويكون مثلها الأعلى المحبة
والكمال الخلقى . وتقوم هذه الأخلاق على أكتاف عظماء بشرية من
الأبطال والأنبياء والمصلحين وغيرهم من العباقرة الذين هم دعاة المحبة
والإيثار ، ورسل القيم الروحية فى كل زمان ومكان ، وهؤلاء العباقرة
والممتازين " أدوات " اصطنعتها الوثبة الحيوية لتحقيق مقصدها الجديد :
ألا وهو تكوين جماعات جديدة مفتوحة وإقامة أخلاق دينامية ، وإن كانت
الأخلاق المغلقة لا تنتشر إلا عن طريق " الدفع من الخلف " فإن الأخلاق
المفتوحة لا تنتشر إلا عن طريق " الجاذبية من الأمام " لأنها فى صميمها
اتجاه مجدد ينزع دائماً نحو المستقبل ، فنحن هنا بإزاء أخلاق حركية

(١) المرجع السابق ص ١٠١ - ١٠٥ .

مفتوحة لا تنتشر إلا عن طريق محاكاة الأفراد لنموذج فردى يعجبون به وينجذبون إليه ، ومعنى هذا أن الأخلاق المفتوحة لا تقوم إلا على الإستجابة لنداء البطل والبطل يؤثر على إرادتنا تأثيرا فعالا مباشرا ، لأنه لا يخاطب منا العقل ، بل هو يخاطب الحساسية كما أنه لا يجتذبننا بالحجة أو الإستدلال بل بالقدوة .

وحيثما يتحدث برجسون عن أولئك الأفراد الممتازين الذين نستجيب لندائهم ونعمل تحت تأثيرهم ، فإنه لا يقول عنهم إنهم الصفوة المختارة التى تحقق للحياة حركتها الصاعدة فحسب بل هو ينسب إليهم أيضا قدرة خاصة على الإحساس بانفعالات جديدة لا عهد للناس بها من قبل ، وهذه الانفعالات الجديدة هي الأصل فى شتى ضروب الإبداع سواء كان ذلك فى مجال الفن أو العلم أو فى مجال آخر من مجالات الحضارة البشرية. وهذه الانفعالات هي أقرب ما تكون إلى ثورة نفسية عميقة ، أو زلزال نفسى باطنى عنيف ، وكثيرا ما يجيء هذا الانفعال مصحوبا بحركة فكرية خصبة أو إلهام عقلى خصب كما تدلنا بعض الانفعالات الهامة التى مر بها كبار المتصوفة والقديسين والأبطال وغيرهم ، والإبداع ليس فى أصله سوى مجرد إنفعال ، ولكن لا يعنى أن الأخلاق تقوم عند برجسون على العاطفة ، ولكن هذه الانفعالات تتبلور على شكل " تمثيل عقلى " حتى يستحيل إلى نظرية أو مذهب .

وهذه الأخلاق المفتوحة لا تنتشر إلا عن طريق البطل لا عن طريق المبادئ المجردة ، بل تنتشر عن شخصية قوية نجد لديها القوة المحركة، والمثال الحى الذى لا بد من أن يحتذى ويقتدى به ، ومهما يكن من شئ فإن قوة الأخلاق المفتوحة لا تنحصر فى تعاليمها النظرية ومبادئها الفلسفية بل هي تتوقف على شرط واحد فقط ألا وهو أن تجيء

تلك القواعد العامة والمبادئ المتعددة فتدوب في شخصية رجل واحد وتنصهر في بوتقة نموذج بشرى واحد ، وهذا هو البطل أو القديس أو الصوفى أو المصلح الذى يسوق وراءه المجتمعات المتحضرة منطلقاً بها نحو أفاق واسعة تمتد فيما وراء كل ما تتطوى عليه الأخلاق المغلقة بأوامرها ووصاياها والتزاماتها وحدودها الإجتماعية الضيقة " (١٠).

ومن الناحية التربوية البطل عند برجسون هو المعلم الذى يعلم البشرية القيم الخلقية ، ليس عن طريق الأفكار المجردة بل عن طريق شخصيته الخلقية القوية ، فهو مثال يُقتدى به ، أو بالأحرى هو القيم تمشى على الأرض . ويتحدث برجسون عن سقراط باعتباره من معلمى البشرية الأبطال فيقول : " إن سقراط يعلم الناشئة لأن وحيًا فى دلفى يهتف به أن أفعَل ، إنه يتلقى رسالة ، وهو فقير ، ولكن يجب أن يظل فقيراً ، يجب أن يختلط بالشعب ، ويجب أن يتكلم لغة الشعب ، ولن يخط سطرًا ، لأنه يريد لأفكاره أن تنتقل إلى نفوس الناس حية ، فينقلونها إلى نفوس غيرهم أيضاً ... إن رسالته صوفية دينية ، على نحو ما نفهم الدين والتصوف ... فإذا رأيت فيلسوفاً قد حبس نفسه على الحكمة ، وإنشق عن عامة الناس ليعلمهم أو ليكون قدوة لهم أو لينصرف إلى تحصيل كماله الذاتى فاعلم أن سقراط ماثلاً حياً أمامه، يؤثر فيه بما له من سحر وسلطان عظيم" (١١).

فمن الذى يريد أن يحشر سقراط فى زمرة النفوس المغلقة فقد أفسح المجال لروح جديدة ، وكان له فى مستقبل الإنسانية أثر حاسم عظيم ، فالتربية هنا ليست ضغط إجتماعى من خلال صب مجموعة من العادات لدى الأفراد ، ولكنها تربية تقوم على القدوة الطيبة ، والتعلق بالمثل

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(١١) برجسون " منبعا الاخلاق والدين " مرجع سابق ، ص ٦٩ - ٧٠ .

الأعلى للفرد ، فهي تربية تتبع من داخل الفرد لا تفرض عليه فرضا ،
وهي ترتبط بحرية الإرادة الإنسانية ، ويتساءل برجسون : " كيف
نستطيع أن نؤثر في الإرادة ؟ ويجيب برجسون : هنالك طريقتان أمام
المربي : الأولى طريقة الترويض بأعلى معانى هذه الكلمة ، والثانية
طريقة التصوف بأبسط معانى هذه الكلمة ، بالطريقة الأولى : تلقن
أخلاق مكونة من عادات ، وبالثانية تكتسب محاكاة لشخص ، بل اتصال
روحي به ، واتحاد شبه تام .

والترويض الأصلي - يقوم على تبني عادات الجماعة فهو آلي يتم من
تلقاء ذاته حين يشعر الفرد أنه مندمج بالجماعة .
وكلما تمايز المجتمع - نتيجة لتقسيم العمل - كان يعهد إلى الجماعات
الصغيرة التي تتكون في داخله بمهمة ترويض الفرد ، وجعله على وفاق
معها ، والأمر في هذه الأحوال كلها أمر مجموعة من العادات وجدت
تحقيقا لمصلحة المجتمع فحسب .

وأما الطريقة الثانية : فهي تكملها عند الحاجة وقد تحل محلها ، ونحن لا
نتردد في أن نسميها دينية بل صوفية ، وهي عند برجسون تجربة
صوفية من حيث هي شيء مباشر ، خارج عن كل تأويل ، أن
المتصوفين العظماء يفتحون أنفسهم للموجة التي تجتاحهم ، وهم لثقتهم
بأنفسهم ، ولكونهم يتحسسون في باطنهم شيئا ما خيرا منهم ، أنهم رجال
عمل عظام ، على رغم ما يترأى للبعض من أن التصوف رؤية ونشوة
ووجدة وهذا الشيء الذي انساب في داخلهم هو تيار هابط يريد أن يعبر
فيهم ليكتسح الآخرين ، فحاجتهم إلى أن ينشروا حولهم ما قد هبط إليهم ،
هذه الحاجة يحسونها وثبة حب ، وهو حب يطبعه كل منهم بطابع
شخصيته ، حب يغدو فيهم عاطفة جديدة كل الجدة ، وقادرة على أن تهب

لحياة البشر رنة جديدة ، حب يجعل كل واحد منهم محبوبا لذاته ، فيفتح الآخرون نفوسهم لمحبة الإنسانية به ومن أجله ، وحب قد ينتقل أيضا عن طريق شخص تعلق بهم ، أو بذكراهم التي لا تزال حية ، فغدت حياته مطابقة لمثالهم ، إنى لأتساءل : إذا كان كلام متصوف كبير أو أحد ممن يحاكونه ، يلقي في نفس أحدها هذا الصدى ، أفليس معنى ذلك أن فينا شخصية صوفية غافلة ، تنتظر من يوقظها من سباتها ؟ ... فهو يستجيب لنداء شخصية ، قد تكون شخصية من أوحى بالحياة الأخلاقية ، أو شخصية أحد ممن يحاكونه ، أو قد تكون في بعض الظروف شخصيته هو نفسه " (١) .

ويقول برجسون " وسواء عملنا بالطريقة الأولى أو الثانية فنحن في الحالين نراعى حقيقة الطبيعة الإنسانية سواء نظر إليها سكونيا في حالها ، أو حركيا في أصولها ، وإنما الخطأ أن يظن أن الضغط والتطلع الأخلاقيين يفسران تفسيراً نهائياً بالحياة الاجتماعية منظورا إليها كأنها حادث بسيط " (٢) .

ويتحدث برجسون عن الإشراق والوجد والتجربة الصوفية " ولكن ماذا تعنى هذه التجربة الصوفية ؟ إنها تعنى أن تحت المجال الضيق للشعور منطقة عميقة هي منطقة الحياة الباطنية ، حياة اللاشعور ، واللاشعور في مذهب برجسون هو نوع عال مما تحت الشعور ، وأعلى من الشعور ، وهو يصعد بالنفس إلى حياة روحية ... ففي هذه المنطقة اللاشعورية يتم

(١) المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٨

(٢) المرجع السابق ص ١٠٩

الاتصال بيننا وبين الله ، وبيننا وبين سائر النفوس ، إننا ندخل هنا فى عالم نتصل فيه الأرواح وتتفاعل لا بواسطة العقل ولا اللغة " (١).

والنفس الإنسانية " تزيل من ذاتها كل ما ليس نقيا ، نقاء كافيا حتى تكون أهلا لأن يستخدمها الله فهى تشعر بالله وتعتقد أنها تراه ، بل تتحد به أيضا عن طريق الوجد " (٢).

" وما يكاد الصوفى يهبط من السماء إلى الأرض حتى يشعر بالحاجة إلى أن يمضى إلى الناس يعلمهم ، يجب أن يبلغهم أن العالم الذى ندركه بالأعين ، وإن كان حقيقا ، فان ثمة عالما آخر غيره ، وليس هذا العالم بالمحتمل أو الممكن فحسب ، كما قد يؤدى إلى ذلك البرهان العقلى ، بل إنه يقينى يقين التجربة " (٣). أى أن العالم الذى تدركه النفس هو عالم حقيقى له وجود واقعى ، ولكن الصوفى هو الذى يدرك حقيقته ، إنه يحس بالحقيقة تتحد فيه من منبعها بقوة فعالة ، ولكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن نشرها كالشمس لا تستطيع إلا أن تسكب نورها ، ولكن نشر هذه الحقيقة لن يكون بالكلام وحده بل بالقوة الروحية الفعالة التى تكمن فى النفس الإنسانية، وهكذا يتحدث برجسون عن التربية الروحية للنفس الإنسانية وإيمانها بالله الذى يزلزل الجبال ، فراح يتحدث عن الإشراق والوجد والاتحاد والفيض الإلهى فى عصر كانت السيادة فيه للفلسفة المادية فأعاد للدين مكانته فى قيادة البشرية كما دعا إلى المحبة والأخوة والسلام والحرية ، فما هى الحرية عند برجسون ؟

(١) مراد وهبة " المذهب فى فلسفة برجسون " مرجع سابق ، ص ١٤٤.

(٢) برجسون " منبع الاخلاق والدين " مرجع سابق ، ص ٢٤٨ .

(٣) المرجع السابق .

التربية والحرية عند برجسون

ترتبط قيمة الحرية بالتربية عند برجسون حيث أنه يرى " أن الحياة هي في جوهرها صيرورة وخلق مستمر ، والإنسان في حالة نضوج مستمر ، والنضج هو أن يخلق نفسه باستمرار " (١).

" والإنسان هو ذلك الموجود الذى تنحصر حريته في خلقه لنفسه بنفسه ، ولكن كيف يخلق الإنسان نفسه ؟

إن الكثيرين ليتوهمون أن الإنسان هو من خلق عوامل كالأوراثة أو الطابع الفسيولوجى أو الجنس أو البيئة أو المجتمع ، ولكن برجسون يقرر أن كل هذه العوامل ليست سوى مواد ستخلق منها الإرادة الحاكمة أو شخصيتها الفريدة ، وإذا كانت فكرة الحرية هي في نظر برجسون تدخل ضمن معطيات الشعور المباشر ، فذلك لأن لدينا شعورا بأننا نحن الذين نخلق نياتنا ومقاصدنا وأفعالنا وعاداتنا وخلقنا ، أعنى شخصيتنا بأكملها ، فالإنسان ليس صانع حياته فحسب ، وإنما هو الفنان الذى يشكل تلك الحياة كما يشاء ، عاملا على الاستفادة من تلك المادة التى يمدده بها ماضيه وحاضره بل وراثته وظروفه ، لكى يخلق من كل هذا صورة فريدة أصيلة ، يكون هو منها بمنزلة المثال الذى يصوغ من الصلصال تمثالا جديدا لم يسبق له مثيل " (٢) .

" إننا أحرار - على حد تعبير برجسون - حينما تصدر أفعالنا عن شخصيتنا بأكملها فتجىء معبرة عنها ، ويكون بينها وبين شخصيتنا من التماثل ما بين الفنان نفسه وإنتاجه الفنى ولعل ذلك يذكرنا بأن التربية

(١) بنزوبى " مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا " مرجع سابق ص ١٨٦ .

(٢) زكريا إبراهيم " مشكلة الحرية " مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

تشكل الفرد كما تشكل قطعة الطين ، فالإنسان يستغل تكوينه الطبيعي وتركيبه العضوى لى يخلق منه طابعا أخلاقيا أصيلا ، فيصبح بذلك كما يريد أن يكون " (١) .

والحرية عند برجسون لا تتعارض مع التربية " فالتربية القاسية فى استعمال السلطة لن تنتقص شيئا من حريتنا حتى لو أنها بثت فى نفوسنا بعض الأفكار والعواطف التى تستطيع أن ترى فى صميم ذواتنا " (٢) .
والحرية كما يتصورها برجسون تعنى " أن يكون الإنسان هو ذاته ، وأن يكون فى وفاق مع ذاته حينما يفعل ، فالحرية علامة من علامات وجودنا ، ويفرق برجسون بين ضربين من الوجود الإنسانى ، فيتحدث عن وجود صحيح حقيقى ، ووجود زائف غير شرعى ، والوجود الحقيقى هو ذلك الوجود الذى تشعر فيه الذات بأنها قائمة بذاتها ، أما الوجود الزائف فهو ذلك الوجود الذى فيه تميل الذات إلى الاندماج مع الناس ، والانغماس فى المجموع ، والارتقاء فى أحضان الآخرين ، وبذلك تتهرب من حريتها وهنا الإنسان يجد نفسه مدفوعاً إلى الأخذ بأحكام الناس ، والتمسك بالآراء العامة الشائعة ، والتعلق بأهذاب الرأى العام ، فتصبح حياته الشخصية صورة من صور المجموع ، ويتحول وجوده الذاتى إلى وجود عام ، وحينما يهبط الوجود الذاتى إلى هذه الدرجة العامة فهناك لا يعود المرء حراً ، أما إذا أردنا أن نسمو بأنفسنا إلى مرتبة الحرية فلا بد لنا من أن نعزف عن ضغط المجتمع لى نعود إلى ذواتنا " (٣) .

(١) المرجع السابق ص ١٣٤ .

(٢) زكريا إبراهيم "برجسون نوابغ الفكر الغربى" مصر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية-١٩٦٨م ص ١٢٩ .

(٣) مراد وهبة " المذهب فى فلسفة برجسون " مرجع سابق ، ص ١٣٥ .

والحرية التى يتحدث عنها برجسون ليست حرية مطلقة ، وذلك لأن الذات الإنسانية تجد نفسها أمام ظروف تفرض نفسها عليها ولا بد أن تقبلها باعتبارها داخلة فى صميم وجودها ، ولا بد لها من أن تتخذ منها وسائل تصل عن طريقها إلى تحقيق نفسها .

والحرية عند برجسون يمكن وصفها بأنها روحية وإبداعية فى آن واحدة فهى فى أعلى صورها عند برجسون " تلقائية روحية خالصة " والفعل الحر إنما هو ذلك الذى يخلق فيه الإنسان نفسه بنفسه كأنما هو عمل فنى حققته روح مبتكرة أصيلة ويشبه برجسون الفاعل الحر بالفنان الحقيقى حين يتصور أولاً فكرة العمل الفنى الذى يريد تحقيقه ... وأما مادة العمل الفنى فى الفعل الحر فهى الإنسان نفسه ، بما لديه من عادات وطبائع وأخلاق وأساليب خاصة فى المعيشة ، ومن هذا الفعل الحر لابد أن ينبثق إنسان جديد يشعر بموقفه الجديد ومصيره الذى لا سبيل إلى التنبؤ به ، وهكذا نجد أن الحرية ترتبط بالتربية والإبداع والتطور فى فلسفة برجسون .

ثانياً : التربية والقيم عند كرونتشة :

جعل هيجل صور العقل " المقولات " صوراً منطقية وبالتالي فقد ظلت هذه الصور عنده ناقصة ، بينما نجد كرونتشه يريد أن يستبدل بتلك المقولات " دائرة أزلية " من القيم الخالدة على اعتبار أن القيم نفسها صور أو مقولات للفكر " وأن كل قيمة من هذه القيم تفترض فى نشاطها الخاص نشاط غيرها من القيم الأخرى ، وبالتالي فإنها جميعاً قيم ضرورية ، دون أن يكون لآية واحدة منها الأولوية أو الصدارة على

غيرها ، وإنما الأولوية للدائرة نفسها ، أى الروح ككل وليست هذه المقولات الأربع سوى : الجمال والحق والخير والمنفعة ، ومن ثم فإن الموضوع الأوحد لفلسفة الروح هو هذه القيم الأربعة " (١) .

القيم العليا عند كروتشة أربعة وهى : الجمال والحق والمنفعة والخير ، وهى تمثل على التوالى علم الجمال وعلم المنطق والاقتصاد والأخلاق . ويؤكد كروتشة على أن هذه المقولات ليست من تأليفه ، وإنما هى تمثل ضروب النشاط الروحى أو المثل العليا التى طالما عملت الإنسانية فى سبيل تحقيقها ، بحيث أنه لولاها لفقد النشاط البشرى كل معناه .

فالتربية تهدف الى غرس هذه القيم الأربع من حق وجمال وخير ومنفعة . ولذا فإن المناهج التربوية الصحيحة هى التى تشمل هذه القيم الأربع ، والمعلم هو راع لهذه القيم العليا ، فهو الذى يشكل الطبيعة الإنسانية . ومن هنا التربية عند كروتشة لا تقف عند حدود المعارف العقلية النظرية فقط بل هى تعمل أيضا على تنمية قوى الإنسان الوجدانية والخلقية .

وبالرغم من هذه القيم عليا وكلية وسامية إلا أنها ترتبط بالواقع والحياة وهى تترجم إلى حالات فردية وجزئية فى صميم المناهج التربوية ، بهدف أن يعمم الدارس بعد ذلك هذه الحالات الفردية ، فمثلا الحرية والشجاعة والجمال والخير هى قيم كلية ، ولكن واضع المناهج يترجم ذلك إلى صور فردية واقعية فيتحدث عن البطل الفلانى ، أو الشجاع الفلانى الذى استطاع أن يكون شجاعا فى معركة كذا ، أو يروى قصة الشعب الفلانى فى شجاعته وقدرته على تحقيق الحرية والقضاء على قيود العبودية ... وكذلك لا يتحدث عن الجمال نظريا وكلية فقط بل

(١) زكريا إبراهيم "دراسات فى الفلسفة المعاصرة" مرجع سابق ص ١٣١ .

يصور ويحدد هذا الشيء الجميل .. وكذلك فى كل القيم الإنسانية العليا .. ، ثم يعمم الدارس هذه الجزئيات الفردية .

ومن هنا فإن القيم عند كروتشه ليست مفارقة للواقع بل هى كامنة فى صميم حركة الحياة : " والواقع أن الجمال والحق والمنفعة والخير لا تمثل قيماً مفارقة قد علقت فوق سماء الصيرورة التاريخية ، بل هى مظاهر روحية فعالة باطنة فى صميم حركة الحياة ، بحيث إنها لتبدو بمثابة المستويات المتنوعة لتلك الصيرورة ، أو المراحل المتعاقبة التى تقطعها الروح فى حركتها المستمرة ، على اعتبار أن الروح لا تكف مطلقاً عن العمل على قهر شتى ضروب الصراع ، من أجل إشاعة النظام فى صميم حياتها الباطنة متغلبة بذلك على كافة أشكال النزاع التى تنشب فى داخلها " (١) .

فالقيم عند كروتشه لها السيادة فى توجيه الفرد والمجتمع فهى الضابط والموجه لهما ، لأن القيم كامنة فى حركة الحياة المستمرة وإذا كانت القيم أولية وقبلية وعامة فإنها أيضاً ترتبط بالواقع وتوجه حركة الحياة وتقود الإنسانية ، ودائرة القيم عند كروتشه تنقسم إلى نصفين هما :

- ١ - القيم الروحية فى الدائرة النظرية وتشمل الحق والجمال .
- ٢ - القيم الروحية فى الدائرة العملية وتشمل المنفعة والخير ، وهذه القيم ليست منفصلة بعضها عن بعض ، وهذه الدائرة من القيم ليست مغلقة على نفسها : " بل تتفق تمام الاتفاق مع فكرة التقدم الفلسفية ، وفكرة النماء الدائم فى الفكر والواقع فى ذاته حيث لا يتكرر شيء غير صورة النماء " (٢) .

(١) زكريا إبراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " ، مرجع سابق ، ص ١٣٤-١٣٥ .

(٢) كروتشه " المجلد فى فلسفة الفن " مرجع سابق ، ص ٩٩ .

بل يعتبر كروتشه هذه الدائرة من القيم هي قانون الحياة .
وهذه الدائرة من القيم هي التي تعمل التربية على غرسها فى الفرد ،
على أن تكون الدائرة كاملة من حق وخير وجمال ومنفعة فما من فرد إلا
وتمثل فيه بكاملها - أى الدائرة - كما أنه ما من جزء من الكون إلا
وتسرى فيه روح الله ، فالتربية شاملة لدائرة القيم ، ومهمة التربية ألا
تتجاهل أيا من هذه القيم ، فهي تعمل على تربية الإنسان عقليا ووجدانيا
وخلقيا وروحيا .

١ - قيمة الجمال :

كروتشه هو فيلسوف الجمال والتاريخ " وله فى الجمال مبادئ
كان لها أثرها البالغ فى تطور هذا العلم حتى ليعد من بين الأعمدة
الرئيسية فى قيام هذا العلم " (١) ، وأعظم مؤلفات كروتشه هو كتابه عن
"الجمال" الذى نشره عام ١٩٠٤م وفيه يفضل الفن على الميتافيزيقا والعلم ،
وأن العلوم تقدم لنا فائدة ، ولكن الفنون تقدم لنا الجمال " (٢) .

وإذا كانت الفنون هي التي تقدم لنا الجمال ، فما هو الفن ؟
الفن عيان أو حدس أو وجدان ، وهو تركيب جمالى أولى بمعنى أنه
مؤلف من العاطفة والصورة على شكل حدس أو عيان . وينكر كروتشه
أن يكون الفن ظاهرة فيزيائية أو وقعة طبيعية ... وكروتشه هنا ينقد
سائر النزعات التجريبية فى علم الجمال ، كما أنكر أن يكون الفن معرفة
صورية بل هو حقيقة روحية تنفعل بها نفوسنا ، كما أنه أنكر أن يكون
الفن فعلا نفعيا ، يقصد من ورائه الإنسان تحصيل لذة أو اجتذاب ألم ،

(١) عبد الرحمن بدوى " كروتشه فيلسوف الجمال والتاريخ " ، مرجع سابق ، ص ١١ .

(٢) ول ديورانت " قصة الفلسفة " ، مرجع سابق ، ص ٥٨٠ .

كما أن الفن ليس فعلاً أخلاقياً " وإذا كان البعض قد ذهب إلى أن من واجب الفنانين أن يوجهوا الناس نحو الخير ، وأن يبيثوا في نفوسهم كراهية الشر ، وأن يعملوا على تقويم أخلاقهم وإصلاح عاداتهم ، وأن يسهموا في تربية الجماهير ، وتقويم الروح القومية لدى الشعب ، ونشر المثل الأعلى بين الناس " على أن فلاسفة الفن الأخلاقيين كانوا في أحيان أخرى يفكرون في استخدامه أداة للتعليم ، لأن العلم جاف كالفضيلة ، وفي وسع الفن أن يرفع عنه هذا الجفاف ، وأن يجعل العلم ميسوراً مستساغاً ، وأن يكون مرشداً للناس في العلم فيأخذ بأيديهم ويطوف بهم فيه كأنهم في حدائق أرميد يسرون فيها فرحين ملتذين ، ولا يشعرون بما تنهياً له نفوسهم من تجديد " (١) .

" بل أن هذا المذهب الأخلاقي في الفن لا يخلو ولن يخلوا يوماً بفضل تناقضاته نفسها من خير وفائدة ... فلئن كان الفنان من حيث هو إنسان ليس خارجاً عن سلطان الأخلاق ، انه لا يستطيع أن يتحلل من واجباته كإنسان ، وينبغي له أن ينظر إلى الفن نفسه على أنه رسالة ، وأن يمارسه كواجب مقدس " (٢) .

وقد عرضنا في موضع سابق كيف أكد كروتشه على اعتبار الفن أداة للتعليم ومدخلاً لدراسة الفلسفة ، كما أكد برنشفك من قبل على دور الفن الأخلاقي حيث أن الفن ينقلنا من أخلاق جزئية إلى أخلاق عامة كلية .
والتربية الجمالية تعمل على تنمية القدرات الفنية الكامنة لدى الفرد ولذلك احتلت الفنون مكانة كبيرة في التربية عند كروتشه ، فقد أكد على أهمية الموسيقى والشعر وغيرهما .

(١) كروتشه " المجلد في فلسفة الفن " مرجع سابق ، ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

ولذلك فهو يقرر أن الشعر هو اللغة الأصلية للجنس البشرى ، لأن الشعر تعبير عن عاطفة فى حين أن النثر لغة العقل ، ويؤكد كروتشه على أهمية اللغة ودورها فى التربية فهى التى نقلت الإنسانية من مرحلة الوجود الطبيعى إلى مرحلة الوجود الإنسانى ، وهكذا كانت اللغة هى العامل الفاصل الذى حدد انتقال الإنسان من الحساسة الحيوانية إلى النشاط الإنسانى " (١) .

ويتحدث كروتشه عن الفن ودوره فى تحقيق التواصل الإجتماعى بين البشر وذلك عبر الأعمال الفنية ، ولذلك يؤكد كروتشه على أننا على إتصال دائم بإخواننا فى الإنسانية قديماً وحديثاً (٢) .

وبعد أن عرضنا لقيمة الجمال عند كروتشه ننتقل إلى قيمة الحق ، فإذا كان موضوع الجمال الجزئى الفردى للأشياء فإن موضوع الحق هو الكلى والصورى ، أى ننتقل من الجزئى إلى الكلى ، أو من الأشياء إلى الأفكار الصورية .

٣ - قيمة الحق :

إذا كان الجمال هو موضوع علم الجمال فإن الحق هو موضوع علم المنطق ، والمنطق هو العلم الذى يعصم العقل من الزلل ، ويعرفه كروتشه " إنه تقرير للكلى العينى والفردى فى آن واحد ، فهو دليل على صدق مبدأ أرسطو القائل : " لا علم إلا بالكليات " كما أنه فى الوقت نفسه دليل على صدق مبدأ كامبانيلا القائل بأن " العلم هو الجزئيات " ولا سبيل لنا إلى إقامة المنطق على أسس راسخة اللهم إذا أقمناه على دعامة

(١) زكريا إبراهيم " فلسفة الفن فى الفكر المعاصر " ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٨ .

من التصور ، وكروتشه يتفق هنا مع هيجل فى القول بأن التصور التجريبي والتصور الرياضى كاذبان ، وهو يأخذ على هذين النوعين من التصورات أن كلا منهما لا يكثرث إلا بجانب واحد فقط من الحقيقة المنطقية ، صحيح أن المفاهيم التجريبية وتصورات العلوم الطبيعية مفاهيم عينية ولكنها تفتقر إلى الكلية ، أما المفاهيم الرياضية فهي تصورات كلية حقا ولكنها تفتقر إلى الطابع العيني ... وأما التصور الحقيقى فإنه لابد من أن ينطوى على طابع حدسى تعبيرى وكذلك الطابع الكلى " (١) . وكروتشه نظرية فى الحقيقة خلاصتها " أن الحقيقة هي جهد وبحث وسعى ، أما الخطأ فهو مضاد الحق وهو لهذا " لا وجود " أى مجرد سلب منطقى ، ومعنى هذا أن التفكير هو تفكير فى الحق ، وبالتالي فإن الحق انتصار مستمر على الباطل ، ولهذا فيه حركة وتطور ونمو ، فالحقيقة انتصار على الخطأ " (٢) .

وأهمية علم المنطق التربوية هي أنه لا قيام للعلوم إلا بالمنطق وهو أهم العلوم وأكثرها كلية وشمولا ، وهو فرع من فروع الفلسفة التى عدها كروتشه أعلى العلوم النظرية على الإطلاق التى تقدم للدارسين . ويرى كروتشه أن فلسفة المنطق تصحح العلوم الطبيعية والمنطق هو الذى يقوم بدور الإشراف على هذه العلوم لأن هذه العلوم بدونها لا تحتوى إلا تصورات زائفة ، وحيث أن العلوم الطبيعية لا يمكن أن تصل على أى نحو إلى المستوى الكلى الحقيقى ، وأنها تعتمد اعتمادا كليا على مواصفات تعسفية " فإن كروتشه يرى أنها ليست إلا علوما زائفة " (٣) .

(١) زكريا إبراهيم "دراسات فى الفلسفة المعاصرة" ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) عبد الرحمن بدوى " كروتشه فيلسوف الجمال والتاريخ " ، مرجع سابق ، ص ٣ .

(٣) بوشنسكى " الفلسفة المعاصرة فى أوروبا " مرجع سابق ، ص ١٣٥ .

ومع ذلك يرى كروتشه أن هذه العلوم الطبيعية ... لها بعض الأهمية ،
وذلك من حيث هي ظواهر فعلية قائمة وبالتالي فهي لحظات العقل "
فينبغي إذن أن ندرسها باعتبارها درجات يصعد عن طريقها العقل إلى
المستوى الأعلى ، مستوى الفلسفة " (١) .

٣ - قيمة الخير :

الخير هو موضوع علم الأخلاق ، ويرى كروتشه أن الشر هو المحرك
الدائم للحياة الروحية ، وما الحياة الروحية - في نظره - سوى كفاح
مستمر ضد الشر ، ووصول تدريجي إلى الخير .

" وليست الحياة سلسلة متراخية من اللحظات المتكررة الخاوية بل سلسلة
ديناميكية من النضال المستمر المندفِع سعيًا وراء تحصيل الخير بالقضاء
على الشر ، ولا سبيل إلى هذا إلا بالتصادم مع الشرور والأشرار ،
واقترام العقبات وتلمس مواقع الكفاح للمشاركة فيه ، ولا جناح على
المرء هنا أن يتلوّث بالخطيئة ، وأن يشتبك مع الشر ، فإن هذه هي
الطريقة الوحيدة للظفر بالخير " (٢) .

فالحياة كما يصورها هي كفاح مستمر ضد الشر ، ووصول إلى الخير ،
وهنا تقوم التربية بدورها في إحلال الخير مكان الشر وهي كما يقول
فينكس " والتربية هي إحلال الخير محل الشر " (٣) .

فالتربية من الوسائل الهامة لإحلال الخير محل الشر " فالفعل الأخلاقي
يسعى نحو تحصيل الخير ، ومحاربة الشر ، فالحديث عن الشر في

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٢) عبد الرحمن بدوي " كروتشي فيلسوف الجمال " ، مرجع سابق ، ص ٤٥٣ .

(٣) فينكس " فلسفة التربية " ، مرجع سابق ، ص ٨٥١ .

التربية هو الحديث عن نفس الموضوعات ومناقشة نفس المشكلات التي تدخل فى تحليل القيم التربوية ولكن من وجهة نظر مختلفة ، فبدلاً من تحقيق القيم ، تعتبر التربية عملية قضاء على الشر ، وبدلاً من توجيهه النمو تصبح التربية طريقة لتجنب الركود أو البعد عن الطرق الباطلة " (١) .

" ومن المناسب أن نصنف الشرور فى أنماط متنوعة ... فالشر المادى هو الفشل فى تحقيق الخير المادى ، والضعف والجوع والمرض أمثلة للشر المادى ، وتتطلب التربية هزيمة هذه الشرور " (٢) ، والشر الإجتماعى هو صراع وعدم انسجام وإحباط داخل المجتمع ... فالهروب والسطو والطلاق أمثلة من الشر الإجتماعى ومن الواضح أن التربية لها علاقة كبيرة بالتغلب على مثل هذه المشكلات .

ويتخذ الشر العقلى أشكالاً كالخطأ أو الجهل أو الوهم ، والتربية إذا نظرنا إليها نظرة إيجابية هى تدريس الحق وتنمية القدرة العقلية ، وقد تعتبر من الناحية السلبية وسيلة لمقاومة الخطأ ودفع الجهل والقضاء عليه .

ثلاثة مظاهر للشر التربوى :

فى العملية التربوية ثلاث طرق متميزة يظهر فيها الشر .

(أ) الركود :

" إن أعظم العناصر أهمية فى التربية التغير ، وهذا متضمن فى تعريفها ، فجميع أنواع التعلم تتطلب التغير ، والتربية كعملية يجب أن تتقدم أو تتحرك إلى الامام ، ولذلك فالركود يتعارض مباشرة مع التربية ، وهو الشر الكبير فى التربية " (٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٨٥٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨٥٤ .

ويعصور كروتشه الطبيعة الإنسانية وهى فى حالة من التطور والتغير واكتساب المعارف من خلال الخبرات المتجددة ، وبالتالي فالركود شر كبير يواجه التربية المستمرة المتجددة عند كروتشه .

(ب) الإحباط :

" مظهر ثان للشر فى التربية هو الإحباط ، فإذا ما أتيح للفرد إمداد كاف من الطاقة الأساسية ، والدافع القوى والحوافز التى تقوم على أساس ، ومصادر بيئية مناسبة ، مادية وإجتماعية ، فإنه قد يفشل مع ذلك فى تحقيق أهداف العملية التربوية بتدخل قوى معارضة قوية ، وهذه القوى قد تعمل من الداخل أو من خارج الفرد ... والخطوة الأولى فى التغلب على الشر هى أن نظهر العقبات إلى مستوى الشعور بالطرق العلاجية . إذن هناك قوى داخلية تعمل على إحباط الأهداف التربوية داخل الفرد كما أن هناك قوى خارجية تعمل على إحباط الأهداف التربوية وهى قوى خارج الفرد قد تكون إجتماعية ، وبالتالي فالإحباط مظهر للشر فى التربية (١) .

(ج) سوء التوجيه :

والطريقة الثالثة التى ينتشر بها الشر فى التربية هى فى التوجيه الخاطيء لنمو الأفراد ، وهنا ينمو الفرد دون عوائق ، ولكن نتيجة النمو قد تكون سامة ، فهذا النمو يكون فاسداً ، والإمكانات التى تحققت تكون شيطانية ، فالأفراد قد يتربون تربية جيدة للإجرام والتعصب ، فالشر هنا ناتج عن سوء التوجيه التربوى " (٢) .

(١) المرجع السابق ، ص ٨٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥٧ .

وبذلك نكون قد عرضنا نظرية كروتشه فى الشر والتربية وسوف نشير إلى قيمة المنفعة عند كروتشه .

٤ - قيمة المنفعة :

المنفعة هى موضوع علم الاقتصاد ، وقد جعل كروتشه المنفعة مقولة هامة من مقولات الروح فليس بدعاً أن نراه يعلق أهمية كبرى على الاقتصاد ، وقد وجه كروتشه إنتقادات جارحة لماركس من وجهة النظر المثالية ، فهو ينعت ماركس بأنه كان مصدر انحطاط وأن عبقريته هدامة تستهويها التهاويل التنبؤية المفزعة " (١) .

وعاب على ماركس موقفه من الدين والفكر والشعر والأخلاق بل كل نشاط عقلى خارج النشاط الاقتصادى كأن كل هذا خداع وتمويه ، وكروتشه يحارب كل نزعة مادية فهو مثالى يرى فى الروح ونشاطها الروحى كل الحقيقة ، والمنفعة عنده مقولة من مقولات الروح شأنها شأن الخير والجمال والحق وهذه القيم ليست مفارقة للواقع بل هى مظاهر روحية فعالة باطنة فى صميم حركة الحياة ، وكروتشه حينما يعارض ماركس فى ماديته فهو ينطلق من مذهب المثالى الروحى الذى يؤمن بالقيم الروحية التى توجه البشرية ، وتقود الإنسانية إلى حياة أفضل ، والتربية هى الوسيلة التى تقوم بغرس هذه القيم ، وإذا كانت الحياة فى تطور ونمو وتغير مستمر ، فإن التربية هى رائدة هذا التغير وحاملة القيم إلى أفراد المجتمع ، وبالقيم تحيا الشعوب وبدونها تفقد الإنسانية إنسانيته وتحيا حياة الغابة .

(١) عبد الرحمن بدوى " كروتشى فيلسوف التاريخ والجمال " مرجع سابق ، ص ٤ .

ثالثاً : التربية والقيم عند لالاند

يهتم لالاند بالقيم الإنسانية ، ففي محاضراته التي ألقاها في مصر في بداية القرن العشرين " الدرسان الثالث والرابع تحت عنوان القيم والحياة والدرسان الخامس والسادس بعنوان القيم ، والحياة الاجتماعية " ومن محاسن فلسفة لالاند أنها قد استندت إلى أحدث انتصارات العلم من أجل إعادة الثقة إلى عقول الناس بقضايا الحياة الروحية وزيادة إيمانهم بالقيم الأخلاقية التي طالما عاشت عليها الإنسانية في كافة الأزمنة " (١) .

وينظر لالاند إلى القيم باعتبارها وسيلة ناجحة لتحقيق التوافق بين البشر ، ولذلك ظل لالاند طوال حياته يدعو إلى إحلال المشاركة والاتحاد والتعاون والسلام محل النزاع والصراع والاختلاف .

ويرى لالاند أن القيم موضوعية فيقول " وذلك أنه يوجد في الفن درج للقيم له حقيقة موضوعية Objective ليس هذا الدرج من المعرفة بمكان درج القيم والموازن ولكن ليس أقل منها صحة فلا تستطيع أن تقول في دانتي وشكسبير أن أحدهما أعلى من الآخر أو أدنى منه " (٢) .

ويقول : " وهذه الحقيقة الخطيرة وهي موضوعية القيم الجمالية يمكن أن يقام عليها برهان آخر " (٣) ويقدم لالاند براهينه على موضوعية القيم .

والقيم الموضوعية لها وجود واقعي وهي أيضاً عامة فيقول لالاند " فإذا ثبت ذلك فبم يمتاز أعظم فن ؟ يمتاز قبل كل شيء بأن تكون له أعم قيمة ممكنة " ويقول " فقد كان برونثير يقول : إن قيمة الأثر الفني تقدر لحظة من البقاء والعموم ، وكان يضيف إلى ذلك أن ليس هناك أثر فني عظيم

(١) زكريا إبراهيم "دراسات في الفلسفة المعاصرة" مرجع سابق ، ص ١١٨ .

(٢) لالاند " محاضرات في الفلسفة " مرجع سابق ، ص ٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧ .

إلا إذا مس هذه الأشياء الثلاثة الأساسية : الطبيعة والحب والموت ، أى أتم الأشياء عموماً فى الإنسانية " (١) .

وإذا كانت القيم الجمالية تتصف بالموضوعية والعمومية فإن من الأحرى أن يتصف الخير والحق بهما .

والقيم بصفة عامة تنحصر فى الوجود كما ينبغى أن يكون لا فى الوجود كما هو والتربية هى التى تتكفل بتحقيق الوجود كما ينبغى أن يكون إلى الوجود الفعلى ، فالتربية هى جهد متواصل من أجل إيجاد المجتمع الفاضل المثالى ، وإذا كان لالاند يذهب إلى أن البشرية تتقدم نحو الاتحاد والوحدة والسلام والتعاون ، فإن القيم هى التى توجه المجتمع نحو هذا الهدف الأكبر ، فالحق والجمال والخير هى قيم تعمل على نمو المجتمع وتوجه المجتمع والفرد إلى الوحدة الشاملة ، أو كما يقول لالاند " هى صور عليا لإصلاح الحياة " (٢) .

وتنقسم القيم عند لالاند إلى طائفتين : " طائفة القيم الدينية والخلقية والفنية والمنطقية ، وطائفة القيم الخاصة بالمنفعة والطمع ، وواضح أن كلا منهما يمثل نوعاً من الوحدة ، وليس مصدر هذه الوحدة أن الأولى تبدو أشرف وأقرب إلى المثل الأعلى فحسب ولكنها تقوم على صفة دقيقة إيجابية قابلة للملاحظة لأول وهلة تصحبها علاقات أخص منها بين الحدود التى تقرب بعضها إلى بعض " (٣) .

وقيم المنفعة والطمع لا معنى لها إلا بالنسبة إلى طبيعة فردية معينة كطبيعة إنسان أو شعب أو طائفة إجتماعية خاصة ، وهى رهينة بتكوين

(١) المرجع السابق ، ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣ .

هذه الطبيعة وظروفها ففوز قيصر لا يعد قيمة إلا بالنسبة إلى قيصر ،
أما بالنسبة إلى هوراس صديق الريف والراحة فإن الاضطلاع بأعباء
الأمبراطورية كان يعد نكبة (١) .

أما قيم الطائفة الأولى فإنها تشترك جميعا فى خاصية مضادة فهى مستقلة
عن مزاج الأفراد وتعارضهم بل أنها تميل إلى تقليل هذا التعارض شيئا
فشيئا .

" وإذا كانت القيم الدينية غير منفصلة عن القيم المنطقية والفنية والخلقية
كما رأينا ، وكان الدين اجتماعيا إلى هذا الحد كانت هذه القيم جميعا
قائمة على إرادة النفس التى جسمها الجماعة المرئية أو بعبارة أخرى
على إرادة الله " (٢) .

على إنه لا ينبغى الاعتقاد - وقد نبه إلى ذلك دوركيم - أن الجماعة
منتجة قيما دائما على السواء فإنها تتعهدا وتحافظ عليها عادة بنظمها
ولكنها تنتجها بدفعات حيوية هى أزمنة الخلق أو الوحي ، فإذا ما هاجت
لسبب ما عاطفة العلاقة بين الأفراد والكل نشأت حينئذ المثل العليا التى
تسيطر فيما بعد على أحكامنا التقويمية .

وهذه هى أوقات الفوران والرقى : مثال ذلك تشريع موسى وقيام
المسيحية مكان الديانات القديمة ، وظهور الإسلام والنهضة والثورة
الفرنسية ، وهذا النوع من القيم الدينية والمنطقية والخلقية تخالف القيم
النفعية فالأولى اجتماعية ، والثانية فردية وسوف نشير إلى أهمية هذه
القيم تربويا من خلال توضيح موقف لالاند من القيم الجمالية والتربية
والقيم الخلقية والتربية أيضا.

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٤ .

١- التربية والقيم الخلقية :

ترتبط التربية بالقيم الخلقية من حيث أن كلاهما يرتبط بالحياة والمجتمع فالقيم الخلقية تدفع الحياة إلى الأفضل ، وليست بمعزل عن المجتمع والحياة الخلقية كما أنها ليست عبارة عن بعض الأحكام الجاهزة ، بل هى تعلمنا وتدفعنا بحيث يكون سلوكنا فى المواقف سلوكاً جديداً مبتكراً أو كما قال لالاند " فليست الأفكار الأخلاقية مجرد أفكار ولكنها قوى تعمل فى الواقع " (١) . وفلسفة لالاند ترى أن التقدم البشرى يتجه نحو الوحدة والتشابه والتقريب بين البشر ، وقد وجد لالاند فى الأخلاق المثالية الإنسانية وسيلة ناجعة لتحقيق التوافق بين البشر ، فإذا كان العلم أداة فعالة للتقريب بين الناس ، فإن الأخلاق هى أفضل الوسائل لتحقيق التوافق بين البشر " (٢) .

إن التربية الخلقية عند لالاند ليست مجرد آراء جوفاء ، ولكنها تعمل على غرس القيم الروحية فى نفوس الأفراد وإعلاء قدر الخيرات العقلية والروحية ، وتهذيب الإرادة وتربية السلوك الإنسانى .

" ولو أننا نظرنا إلى فلسفة لالاند الأخلاقية لتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة أنها أخلاق عقلية مثالية تضخى بالفرد لحساب الجماعة ، وتعالى من شأن القيم الأخلاقية على حساب الحياة العضوية ، ومن هنا فقد حكم بعض مؤرخى الفلسفة المعاصرة على أخلاق لالاند بأنها أقرب إلى الأخلاق المغلقة منها إلى الأخلاق المفتوحة (إذا استخدمنا الاصطلاح البرجسونى المعروف) ولكن الواقع أن لالاند لم يرد أن ينتقص من قيمة الفرد وكما خيل لبعض الباحثين بل كل ما هنالك أنه قد تحقق من أنه لا سبيل إلى

(١) يوسف كرم " تاريخ الفلسفة الحديثة " مرجع سابق ، ص ٤٥٤ .

(٢) زكريا إبراهيم ، دراسات فى الفلسفة المعاصرة " مرجع سابق ، ص ١١٧ .

إقامة الأخلاق على أسس فردية خالصة فكان لا بد له من أن يقيم الأخلاق على دعائم إنسانية تعلو على الحياة الفردية الضيقة . وعلى الرغم من أن لالاند قد دافع عن الحقوق المشتركة لكل فرد عاقل ضد شتى النزعات الجماعية الاستبدادية إلا أنه قد اعترض في الوقت نفسه بكل شدة على تلك الفردية الفوضوية التي دافع عنها فليسوف مثل ماكس اشترنر .

وأما تلك النزعات السياسية التي تقول بأن الدولة أسمى من الفرد ، وأنه لا بد من التضحية بمصلحة الفرد لحساب الجماعة ، فإنها كثيراً ما تكون في رأى لالاند مجرد حيلة يصطنعها بعض الساسة للعمل على إشباع حب الفرد (ألا وهو الحاكم) للسلطة وميله إلى فرض سيطرته على الآخرين " (١) . ولذلك فهو يوجه انتقادات إلى المذهب الشيوعى باعتباره مذهب واحد ، وأن الشيوعية حافلة بالمتناقضات الباطنية . إن حلم لالاند الأكبر هو أن يندمج الكون كله في جهاز عضوى واحد والبشرية سائرة في هذا الاتجاه نحو الاتحاد والتشابه ، والعقل يتجه دائماً إلى التقريب بين الناس ، إلى تكوين مجموعة من الحقائق تؤلف تراثاً مشتركاً بين البشرية ، وليست شتى الأعمال الإبداعية التي يقوم بها الأفراد الممتازين على مر الزمن سواء في مضمار الفكر أو العلم أو الأخلاق أو السياسة أو الفن كل هذه محاولات إنسانية من أجل خلق تراث إنسانى موحد، ويكون الهدف التربوى الأكبر عند لالاند هو تكوين هذا التراث الانسانية الموحد ونقله وحفظه ، وبالتالي فالمنهج الدراسى يكون شاملاً لكافة الأنشطة الإنسانية ، ويحتل التراث مكانة هامة في العملية التربوية ، والتراث يحفظ في كتب ، فالكتاب له أهمية في تعليم

(١) المرجع السابق ص ١١٤-١١٥ .

الأفراد من حيث أنه حاوى للحقائق الإنسانية الكلية من علوم وفنون وآداب .

" والأخلاق فى نظر لالاند ترتد إلى فضيلتين أساسيتين ألا وهما : العدالة والمحبة والمقصود بالعدالة وضع حد أمام اندفاع الحياة بحيث لا ندع النوازع الحيوية الفردية تتحكم فى العلاقات القائمة بين الناس ، أما المقصود بالمحبة فهى بذل الذات أو التضحية بالنفس ، أو فقدان الذات فى الآخرين ، وليس ثمة حكمة لا تنصح الفرد بالإنسحاب من المعركة على اعتبار أن مثل هذا الاعتزال هو السبيل الأوحى للتهرب من الألم ، وليس ثمة دين لا يصب جام اللعنة على الجسد أو لا يجعل من الفضيلة مقاومة للشهوة ، أو لا يدعونا أخيراً إلى التأمل الدائم فى الموت أو لا يهيب بنا أن تحقق فى أنفسنا ذلك التجرد التام الذى لابد للموت يوماً من أن يجيء فيحلنا إليه^(١) . وهذه النظرة للعالم تهدف إلى أن التربية تعد لحياة آخرة كما تعد لحياة الدنيا الحاضرة وإن كان بعض التربويين التقدميين يرون أن المربين يحسنون صنعا إذا هم حصروا جهودهم التربوية فى نطاق مظاهر عالمنا هذا .^(٢) ولكن لالاند يؤكد على الوجود الروحى شأنه فى ذلك برجسون وبرنشفك الذين يرون أن الحياة الدنيا ليست هى كل شىء ولكن هناك الآخرة التى لا ينكرها إلا كل جاحد . ويقول لالاند : " يمكن الاحتفاظ به من التحليلات السابقة أن الحياة ليست كل شىء ، وأنه يمتنع على أية حيلة تاريخية أو نفسية إلغاء الفرق بين الطبيعة وما يعلو عليها " ^(٣) .

(١) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٢) Brubacher (Modern Philosophies of Education" p.23 .

(٣) لالاند محاضرات فى الفلسفة (مرجع سابق) ص ٦٠ .

والقيم الخلقية هي ثمرة للعقل ، لا للحياة ، وهي لا تعلمنا شيئاً آخر سوى التخلي عن الأنانية على اعتبار الأنانية التعليق بالاختلاف الفردي ، والتربية الخلقية كما تهدف إلى إعداد للحياة الدنيا فهي تعمل على إعداد للحياة الآخرة .

٢- التربية والقيم الجمالية :

إن الجمال يرتبط بالتعليم ، فالتعليم نفسه فن ، فهو يؤدي بصورة فنية ، وإذا كان لالاند يؤكد على التربية العقلية فهو كذلك يعترف بأهمية التربية الجمالية ويرجع ذلك إلى اهتمامه بالفن والفنون ، فيقول لالاند : " فالذهن المتأثر بالجمال إذا لم يرب تربية فنية يميل أولاً إلى صور من المناظر الطبيعية رخيصة جمالية زاهية الألوان دون أن يميز منها قيمة صورة ملونة مطبوعة على الحجر ، فإذا ترقى ذوقه بالتربية — أدراك ما في صورة " كرو " من تفوق ، ثم من المحقق أنه لن يعود إلى ميله الأول ، ومن حقنا إذن أن نتكلم عن قيم فنية لا شك فيها ليست أبعد عن اليقين من قيم المنطق وحقائق العلم " (١) . ومن هنا فإن لالاند يدعو إلى التربية الجمالية داخل المدرسة وأن يشمل المنهج الدراسي الفنون الجمالية من موسيقى ورسم ونحت وينضم إليها الأدب وخاصة الشعر ، فهذه الفنون الجميلة تنمي قدرة الفرد على التمييز الدقيق بين الأشياء الجميلة ، كما تعمل التربية الجمالية على تنمية قدرات الفرد الفنية الكامنة ، فالقيم الجمالية لها قيمتها التربوية التي تميزها عن غيرها من القيم التربوية ، والفنون تعتمد على الحدس " إن الفن يعتمد على الحدس والشعور بينما العلم يعتمد على الفهم المنطقي " فالحدس مهم أهمية العقل في التفكير "

(١) لالاند ، (١) المرجع السابق ، ص ٦ .

ومن ثم فإن المثاليين يوصون بدراسة الفن والأدب جميعاً لتنمية الموهبة الحدسية وتنظيمها^(١) . وعلى المدرس أن يتمتع بهذا الحدس حتى يستطيع أن يساعد الطفل على تحقيق ذاته وتنمية ملكاته وقدراته ، ومن جهة أخرى تلعب الفنون دوراً كبيراً في تحقيق التواصل بين الأفراد " من اليسير أن نلاحظ أن الفن عامل من عوامل التواصل وأن له قدرة على التقريب بين الأفراد والشعوب ومحو ما بينهم التباين الاجتماعي قوة بالغة " ^(٢) . ومن الواضح " أن التربية في الفنون توسع إلى درجة كبيرة مدى التواصل وتفتح عوالم من المعنى لا تستطيع اللغة العالية الوصول إليها " ^(٣) . وكما يقول لالاند : " الجمال يزيل الحواجز " ^(٤) . بين الأفراد فالموسيقى تنقل من أشكال الخبرة ما لا يمكن ترجمته بالكلمات ، فالتربية الجمالية لا تهدف إلى تنمية القوة الحدسية لدى الفرد فقط ، ولكنها تهدف إلى تحقيق التواصل بين الأفراد وبين المجتمعات أيضاً حتى نصل إلى المجتمع الواحد الأكبر ، ويستشهد لالاند بـ (سيال) Seailles فيقول : إن الفن ينقلنا إلى عالم كله سلام لا يفرق فيه بيننا شيء ، فيه يزول كل خلاف وينقطع كل تعارض ولا نكاد نتميز ممن يفكرون ويشعرون كما نفكر ونشعر ، فيه تصبح اللذة نوعاً من الحنان والتعاطف العام ، و نسيان كل أنواع الاختلاف التي تفرق بيننا ، والفقر الذي يحملنا على الجهاد في سبيل الحياة يهيئنا لهذه السكينة العظيمة التي ينزلها على قلوبنا تأمل الجمال " ^(٥) .

(١) محمد منير مرسى " فلسفة التربية واتجاهاتها ومدارسها " مرجع سابق " ص ١٨٠ .

(٢) لالاند " محاضرات في الفلسفة " مرجع سابق ص ٧ .

(٣) فينكس " فلسفة التربية " مرجع سابق ص ٦٧٨ .

(٤) لالاند " محاضرات في الفلسفة " مرجع سابق ص ٧ .

(٥) المرجع السابق ص ٨ .

ويتحدث لالاند عن بعض الأفراد الذين ينصرفون عن الجمال والصور الفنية العليا كما ينصرفون عن شيء يؤذيهم ، فيقول : ليس هؤلاء أغبياء فإن من الأغبياء من يحب النور ويحاول السمو ، أما هؤلاء فيحاولون الرقى إلى أسفل " ولكنهم يشعرون أن فى الجمال وسمو النفس والعلم نفسه من حيث أنه خالص يطلب لقيمه الذاتية الصرفة خسارة ، أو قضاء الأثرة الشخصية على أقل تقدير لهؤلاء المفتونون بأنفسهم الحريصون حرصا عميقا على شخصياتهم يندفعون بحكم الغريزة فى غير شعور — وإن كان ذلك الاندفاع معقولا إلى مقاومة القوة الفنية التى تقارب بين الناس " (١) .

٣- حاجة الإنسان إلى المثل الأعلى :

وكذلك يستلزم الإحساس الفنى والعقل والحياة المعنوية ضربا من المثل الأعلى يزيد قيمتها ويتميز بخصلة بعيدة كل البعد عن الرقى من طريق التباين العضوى ، والفوز الفردى فى الجهاد للحياة وهذه الخصلة التى تتميز هذا الضرب من المثل الأعلى حتى فى الصور الفنية التى تتنوع أحيانا هى دائما حركة التراجع التى تتفتح بها العقول بعضها لبعض أو تجتمع بها على فكرة واحدة وليس معنى ذلك أن يختلط الفن بالعلم أو بالرغبة فى تجويد العمل ولكن بين العلم والفن نوعا من الموازنة وضربا من الاتجاه المشترك نحو غاية واحدة فالعلم موضوعى غير شخصى ويحاول علم الأخلاق أن ينفذ إلى هذا الميدان الفردى الذى يتجاهله العلم لعله يحده بالعدل أو يزيله بالإحسان والاخلاص . فهو يدعو إلى قهر كل ما يمس الأثرة ووضع الخير الصحيح فى كل ما هو للناس جميعا دون

(١) المرجع السابق ص ٨ .

استثناء ولا تنافس . والفن يمهد لنتائج العلم والأخلاق لأنه يخلق عالماً خيالياً يرضى حاجة العقل ويؤذن بانتصاره ، ينبعث مما بين الناس من تعاطف ولكنه ينبعث كذلك من ميلنا إلى الأشياء التي يخيّل إلينا أحياناً أننا نتحد معها . ويقول سنت بوف " لا يستغنى الفن عن عاطفة قوية متصلة بأعماق النفس تصل بينها وبين الأشياء وإذا كان الناس يقتنعون بالقشور فإن الفنان منح إحساساً خاصاً يدرك به العالم الخفى " وفى الوقت نفسه يشعر القادرون على فهم هذا الأثر الفنى والإعجاب به بأن بينهم صلة أخوة مهما تفصل بينهم الظروف والمسافات ، فالفن الصحيح ينشأ إذن فى ميدان مختار محدود ويحاول العقل استكشافه فى جملة الأشياء وما تحاول الحياة الخلقية تحقيقه (١) . ومن هنا يتضح لنا أن الحياة الخلقية والعلم متى انتهيا فى بعض المواضع إلى حد ما من الكمال أصبحا نوعاً ما من الآثار الفنية ، وتركنا فى أنفسنا أثراً قوياً من الإعجاب بالجمال .

رابعاً : التربية والقيم عند برنشفك :

يحتل موضوع القيم العليا مكانة هامة عند برنشفك ومن أهم القيم التى وجه اهتمامه بها هى قيمة العلم وقيمة الحرية والقيم الخلقية والجمالية ، فإذا كان الوعى العقلى يحقق ضرباً من التوافق بين الإنسان والكون فإن القيم الخلقية تحقق ضرباً من التوافق بين الإنسان ومجموع البشرية . والتربية عند برنشفك تربية متكاملة لأنها تشمل كافة جوانب الإنسان من الناحية العقلية والوجدانية والسلوكية ، ولذلك احتلت قيم العلم والجمال والحق والخير والحرية المكانة الأولى من بين سائر القيم .

(١) المرجع السابق (ص ٩ ، ١٠) .

وفلسفة برنشفك فلسفة مثالية تهدف إلى إصلاح المجتمع الإنسانى ، فهو يرى أن المجتمع يشيع فيه الفساد ، وأن خلاص المجتمع وإصلاحه لن يتحقق إلا بالقيم الإنسانية العليا التى تعمل التربية على غرسها لدى الأفراد ، فالقيم الجمالية تعمل على تنمية الذوق والإحساس بالجمال ، والتربية الخلقية تعمل على تهذيب الخلق الإنسانى وتربية الإرادة وتدريبها على فعل الخير ، الخلاصة إن إصلاح المجتمع يبدأ من إصلاح الفرد ، وإصلاح الفرد لا يتحقق إلا بتحقيق القيم الإنسانية لدى الفرد ، ومهمة التربية أن تقوم بذلك الدور فى إصلاح المجتمع .

فما هى القيم التى تحدث عنها برنشفك ؟

أ - قيمة العلم :

أظهر برنشفك إيمانا كبيرا بقيمة العلم كأهم مظهر من مظاهر الإبداع البشرى ، والحقيقة عند برنشفك هى الحقيقة العلمية التى تعلمنا كيف نفهم حقيقة الكون بل حقيقة أنفسنا أيضا ، فالإنسان لا يعرف حقيقة ذاته إلا من خلال حقيقة الكون .

ويرى برنشفك " أن العلم وحده هو الذى يسمح للإنسان بتجاوز ذاته والعلو على نفسه " (١) . ومهمة التربية أن تشجع هذا النمو ، وهذه القدرة على السمو بالذات .

فما من تربية إلا وتضع قيمة العلم أعلى القيم ، ولذلك فإن برنشفك قد عارض شتى النزعات الصوفية وغيرها .

والمعرفة الحقيقية عند برنشفك هى المعرفة العلمية التى تأتىنا عن طريق المنهج العلمى ، ومن هنا فإن التربية يجب أن تشجع الحقيقة العلمية وتعمل على نموها من خلال المشاركة فيها ، وبالتالي فالتربية الصحيحة

(١) زكريا إبراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " مرجع سابق ، ص ٩٣ .

هى التى تخرج لنا العلماء ، وبالتالى فهى تركز على كيف نعلم أولادنا وندريبهم على التفكير بطريقة علمية ، فالتربية ليست مجموعة حقائق علمية تنقل إلى التلميذ ولكنها تعتمد أولاً وأخيراً على تعليم التلميذ الموضوعية العملية والملاحظة الدقيقة والتجريب والفروض والتحقق من صحة الفروض .

ب- الحق :

الحقيقة عند برنشفك هى الحقيقة العلمية التى يمدنا بها المنهج العلمى ، وإذا كان العلم يقدم لنا الحقيقة فإن الحقيقة الفلسفية هى إدراك واع للعلم فهى لا بد من أن تقتصر على فهم ما يفترضه العلم وما يسمح لنا باستنتاجه ، فالحقيقة الفلسفية حليفة لذلك العلم الوضعى وإذا شاء العقل أن يفهم العالم فينبغى عليه ألا يحصر نفسه فى الأحكام السابقة للتجربة ... وينبغى عليه أن يخلق العلم .

" والعقل هو ينبوع الحقيقة ، والحقيقة ليست أبدا بالنسبة إلى العقل أمرا ثابتا إنها حياة ، حياة العقل نفسه ، وهكذا فإنه فى الوقت الذى يولد فيه الحق وينمو فإن العقل الذى به ينمو الحق ويولد ويتطور ويتقوى ، لأن العقل ليس شيئا مكتملا ثابتا لا يتغير " (١) .

وإذا كانت الحقيقة تكتسب وتتجدد فإن من أهداف التربية البحث عنها والكشف عن أسرارها ، فهى تربية تقوم على إعداد الأفراد لعالم متغير ومتجدد ، وبالتالى لا بد أن تكون تربية تؤمن " بأن هدفها يجب أن يكون

(١) بنروبى " مصادر وتيارات الفلسفة الفرنسية " مرجع سابق ، ص ٤٤٠ .

التجديد المستمر لبناء الخبرة الإنسانية التى هى فى تجدد وتقدم تغير مستمر " (١) .

فمن الواجب على التربية أن تضع فى إعتبارها حقائق هذا العالم ، فقد دأب المربون على النظر إلى العالم على أنه يتبدل باستمرار ، وبالتالي فالتربية إعداد لهذا العالم المتغير .

ج- الحرية :

يقول برنشفك : " الحرية هى عملية روحية تعبر عن مقدرتنا على تحرير ذواتنا ، وإذا كان من الحق أن الناس لا يطربون لشيء بقدر ما يطربون للقول بأنهم أحرار ، فإن من الحق أيضا أنه ليس أشق على الناس من أن يتحرروا بالفعل " (٢) . فالإنسان يتفرد بهذه الحرية ، فهو صانع نفسه إلى حد معين ، وترتبط الحرية عند برنشفك بالسمو بالذات - والتصحيح المستمر لها ، ومهمة التربية أن تهدف إلى السمو بالذات والتصحيح المستمر لها " بل إن التربية فى معناها الكامل نمو مستمر بالذات " (٣) . فالحرية ترتبط بنمو الذات ، فلكى يكون الفرد إنساناً يجب أن يكون قادراً على اختيار ما سيكونه ، وما سيقوم به ، ولكننا - فيما يقول برنشفك - نحيا فى عالم مليء بالعوائق ، ولا بد للحرية من أن تصطدم بالعائق حتى تستحيل إلى قيمة " (٤) .

فالحرية كالحق والعدل إحدى القيم التى يؤمن بها كل فرد ، وهى هدف تربوى يدعو إلى التقدير ، " وهى ليست منحة كما يتصور البعض - قد

(١) Brubacher " Modern Philosophies of Education " P.2.

(٢) زكريا ابراهيم " مشكلة الحرية " مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٣) فينكس " فلسفة التربية " مرجع سابق ، ص ٧٢٦ .

(٤) زكريا ابراهيم " مشكلة الحرية (مرجع سابق) ، ص ١٤ .

جاءت بها علينا الطبيعة ، ولكنها فى الحقيقة هى " كسب " لابد لنا من أن نعمل على إحرازه " (١) .

وإذا كانت البشرية تهدف تحقيق الحرية فإن العملية التعليمية يجب أن تقوم على دعائم من الحرية ، فالعقل الصحيح إنما هو الابتكار الحر الذى لا يخضع لأى تكوين سابق ، أو أية مقولة أزلية ؛ فالتربية عند برنشفك تهدف إلى الابتكار الحر الذى لا حدود له وتاريخ العقل هو تاريخ الحرية، والتربية لا تتعارض مع الحرية ، لأن التربية ليست توجيه شخص لشخص آخر فقط بل التربية تتضمن التوجيه الذاتى وتقرير المصير ، ولذلك فالقيم الأخلاقية عند برنشفك " ليست صادرة عن سلطة خارجية ولكن الحقيقة أن الرجل الفاضل هو أولاً وقبل كل شىء إنسان حر لا يعرف الخضوع الأعمى ، أو الموافقة الاستسلامية ، لأنه ينشد الخير وفقاً لما يرى أنه الحق لا وفقاً لما يقضى به العرف أو أى رأى آخر مسبق " (٢) .

وبالتالى فالتربية ترتبط بحرية الإرادة من خلال التوجيه الذاتى أو مشاركة التلميذ فى إختيار ما سيتعلمه ، فالتربية هى شىء يجب على التلميذ أن يختاره بنفسه " (٣) ، أو يشارك فى الإختيار .

ويرى برنشفك أن الحياة الخلقية تؤدى إلى تربية إجتماعية تكون الحرية هى الغاية النهائية أو الهدف الأقصى .

ولن نتحقق الوحدة بين البشر ، إلا بتحقيق التوافق الباطنى بين الحريات ، فالإنسان لا يحيا بمفرده ولكنه يحيا مع الآخرين ، إذن هى حرية مسئولة

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٢) زكريا إبراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) Brubacher . Modern Philosophies of Education . P.64.

" تقوم على تربية الإرادة وحسن سياسة الحرية التى تقوم على درجة كافية من الوعى والنضج العقلى ، وبالتالي فالحرية على اتصال دائم بالعقل ، فالعقل يدرك الوقائع فى موقف من المواقف ثم تأتى بعد ذلك الإرادة لتختار عندئذ " (١) .

د - الجمال :

الجمال من القيم العليا عند برنشفك ، ولا تقل أهميته فى التربية عن سائر القيم الأخرى السابقة ، والروح هى مصدر الجمال ، وهى أيضاً مقياسه ، والعمل الفنى هو ما يثير أو يحدد الانفعال الجمالى ، " ومعيار العمل الفنى فى العقل الذى يتأمله " (٢) . والإنسان ليس فرداً محصوراً فى رغباته ومخاوفه ، ومقدر عليه الكفاح فى سبيل المحافظة على حياته الفيزيائية أو تنميتها ، بل نحن المركز الكونى ، مركز الفكر الذى يعطى لكل شىء الحق والجمال " (٣) .

ويتحدث برنشفك عن الفن الذى يحقق بيننا وبين الآخرين - عن طريق التذوق الفنى - ضرباً من المشاركة الوجدانية ، فالتربية الجمالية هى تلك التربية التى تنقلنا من أخلاق جزئية إلى أخلاق كلية ، لأنه عن طريق الأعمال الفنية يتحقق الإشعاع الروحى الذى يعد هو مدرسة أخلاقية تتعلم فيها البشرية بحيث قد يصح لنا أن نقول أن الفن هو أعمق مظاهر

(١) Brubacher : Modern Philosophies of Education . P.61.

(٢) بنروى " مصادر وتيارات الفلسفة الفرنسية " مرجع سابق ، ص ٤٤٠ ، ٤٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٤١ .

النشاط البشرى جميعاً تعبيراً عن الإتصال ، وأشدها إثارة للإنفعال ، وأكثرها (١) .

فعلى الرغم من أن القيم الجمالية تستطيع الوقوف وحدها مستقلة فإن من الواجب فيها ألا تقوم فيها بعيدة عن الحياة اليومية " فهى أداة تواصل بين الأفراد ، كما أنها تحقق ضرباً من التواصل والمشاركة الوجدانية " (٢) .
والتربية الجمالية عند برنشفك ترتبط بالأخلاق ، فهى أداة للتحسن الأخلاقى ، فالفن ليس مستقل عن الأخلاق كما هو عند كروتشة ولكنه يرتبط به ، فالفن ينقلنا من أخلاق فردية جزئية إلى أخلاق عامة كلية ، والتربية الجمالية بمعناها الواسع تنمية القدرات الفنية الكامنة لدى الفرد .
فيقول برنشفك " فالتربية الجمالية هى بلا شك الوسيلة الناجعة التى يتسنى لنا عن طريقها أن ننقل من أخلاق جزئية محدودة إلى أخلاق عامة كلية إذ تحيا نفوس الآخرين فى أعماق ذواتنا ، لا بوصفها مجرد انعكاسات لأذواقنا الخاصة ورغباتنا الشخصية بل بوصفها تجارب حية تشارك فيها من الداخل فنستطيع عن هذا الطريق أن ننفذ إلى عوالم نفسية جديدة مغايرة لعالمنا الشخصى ، ولا شك أن هذا الإشعاع الروحى الذى يتحقق عن طريق الأعمال الفنية إنما هو مدرسة أخلاقية كبرى نتعلم فيها التعاطف والتناغم والمشاركة الوجدانية " (٣) .

وهكذا نجد أن التربية الجمالية ترتبط بالتربية الخلقية عند برنشفك كما ترتبط التربية الخلقية بالتربية العقلية كما أشرنا إلى ذلك .

(١) زكريا إبراهيم " مشكلة الفن ص ٢١٤ .

(٢) John S. Brubacher . Modern Philosophies of Education . P.98.

(٣) زكريا إبراهيم " مشكلة الفن " القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٧٣ م . ص ٢١٤ .

" فإذا كان رجل الأخلاق يفيد الكثير من كل من العلم والفن فذلك لأن من شأن العلم أن يغرس فيه روح النزاهة كما أن من شأن الفن أن يبيت فى نفسه روح التعاطف أو المشاركة " (١) .

كما تعمل التربية الجمالية عند برنشفك على التواصل بين الإنسان وغيره من البشر فهى تحقق ضرباً من المشاركة الوجدانية الفعالة بيننا وبين الآخرين ، كما تعمل على تهذيب النفس وتنقيتها وتصل ذوق الإنسان وتربى إحساسه الجمالى وترقق شعوره الفنى وتنمى قدراته الفنية الكامنة لدى الإنسان وتحقق التعاطف والتناغم والمشاركة الوجدانية بين البشر ، " ومن هنا فإن المدرسة يجب أن تهتم بالتربية الجمالية فتعمل على إيجاد الحجرات الخاصة للتربية الفنية وتعمل على توفير بعض اللوحات القيمة لكبار الفنانين وتوفر حدائق داخل المدرسة مملوءة بالنباتات والزهور لتنمية الحس الجمالى للتلاميذ ، كما تشجع المدرسة على الرحلات إلى المتاحف والآثار التى أبدعها القدماء كل ذلك يعمل على تنمية التربية الجمالية لدى التلاميذ " (٢) .

هـ- القيم الخلقية :

القيم الخلقية هى نقطة تلاقى الفكر والعمل ، فالغاية التى يهدف إليها النظر الإخلاقي هى منذ البداية توجيه السلوك وإرشاد الناس فالعمل

(١) زكريا إبراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

(٢) J . Howard Whitehouse " Education " London . Rich , Cowan Ltd. 1910 . P.55 .

الأخلاقي يهدف إلى المساهمة فى بناء الشخصية الإنسانية فهو يأخذ على عاتقه مهمة العمل بالقيم العليا والمشاركة فى تربية الإنسانية بوجه عام (١) .

وتهدف التربية الخلقية عند برنشفك إلى التسامى بنا نحو مستوى الكلية الإنسانية ، أو الوحدة البشرية الشاملة .

والحق أننا لا نستطيع أن نحقق هذه الوحدة إلا من خلال تقدم الوعى العقلى والخلقى والوجدانى ، وتقوم التربية الخلقية عند برنشفك على مرحلتين : الأولى تحرر الإنسان من أرائه الحافلة بالأنانية والتقاليد الزائفة القائمة على الإيمان الحرفى .

المرحلة الثانية هى غرس القيم الخلقية فى نفوس الأفراد من أجل بناء شخصية الإنسان الأخلاقى الذى لا يخضع لأى أمر مطلق أو أى سلطة خارجية ، بل هو إنسان حر ينشد الخير وفقاً لما يراه أنه الحق ، لا وفقاً لما يقضى به العرف .

إنها تربية تستند إلى الوعى العقلى ، فلا يحكم الفرد أهوائه وميوله ، ولكن العقل وحده هو الذى يسيطر على إرادة الإنسان . ويرى برنشفك أنه لى نرقى إلى الحقيقة الكلية فيجب أن نتغلب على ما فىنا من أنانية لى نسمو بأنفسنا نحو مستوى المحبة والإحسان ، وكما أن العقل هو مبدأ الوحدة الروحية بين النفوس فإن المحبة هى إرادة الخير الكلى ، والحياة الروحية هى التى تحقق الوحدة بين العقل والحب ، والحق أن

(١) زكريا إبراهيم " المشكلة الخلقية " ، مرجع سابق ، ص ٧ .

برنشفك قد سيطرت عليه فكرة الحياة الواحدة ولذلك فقد تحمس لفكرة توحيد الأديان ، فقد كان برنشفك رافضاً للثنائية الكونية والإنسانية أيضاً، فلم يبق سوى فلسفة الوحدة التي تقوم على الوعى العقلى والخلقى والوجدانى .

وإذا كانت التربية العقلية تركز على تنمية القدرات العقلية فإن التربية الخلقية تركز على تربية السلوك الإنسانى تربية تنتزعنا من أنانيتنا لكى نتجه بنا نحو أفق مشترك هو أفق الإنسانية .

" وتحتل القيم - بصفة عامة - مكانة هامة فى المثالية المعاصرة ، وخاصة قيمة الخير ، لأن الفيلسوف المثالى يهتم بتكوين شخصية المتعلم " (١) .

" والهدف من التربية الخلقية هو تنمية شخصية المتعلم ولتحقيق هذا الهدف تركز التربية على أهمية القيم لدى المتعلم " (٢) .

والمثالية المعاصرة تعطى اهتماماً كبيراً لتنمية السلوك الأخلاقى سواء كان داخل المدارس أو خارجها " (٣) .

" وتاريخياً يوجد دائماً ارتباط قوى بين التربية الخلقية والتربية الدينية ، وفى كثير من الأقطار تربط كل الأسر بين الدين والأخلاق كما يتضح ذلك فى التعاليم الخلقية سواء كان داخل المدارس أو فى دور العبادة ،

(١) Loretta " Teaching and Learning " P.81.

(٢) Ibid. P.62.

(٣) Samuel . C . Parker " Types of elementary Teaching and Learning " Boston , Ginn and , Co., P.562. ()

وفى الحقيقة أن التربية الخلقية والتعاليم الدينية إنهما سفينة النجاة للإنسانية " (١٤) .

والديانات السماوية تهتم بالسلوك الأخلاقى للإنسان إهتماماً كبيراً " ومن هنا تأتى أهمية التعاليم الدينية لدى الأطفال وخاصة منذ الصغر ، على ألا تكون التربية الخلقية والتعاليم الدينية داخل المدارس أو فى دور العبادة فقط بل يجب أن تكون فى المنازل أيضاً " (٢) .

ولكن كيف نحقق هذا الوعى الدينى والخلقى ؛ فيقول برنشفك : " ولا سبيل إلى تحقيق تقدم الوعى الخلقى أو الوعى الدينى اللهم إلا إذا تسنى لنا أن نحرر الإنسان من أرائه المبتسرة الحافلة بالأنانية ، ونقايله الزائفة القائمة على الإيمان الحرفى " (٣) .

فالتربية تعمل على تحرير الإنسان من التقاليد الزائفة وبث القيم الخلقية والمثل العليا ، فمن " شأن الأخلاق أن تنتزعنا من أنانيتنا " (٤) ، لكى تتجه بنا إلى أفق الإنسانية جمعاء وإذا كانت التربية العقلية تعمل على تحقيق التوافق بين الإنسان ومجموع البشرية فالقيم الخلقية كفيلة بتحرير الإنسان والسمو به إلى مرتبة أسمى ومكانة عالية ، فهى تعمل على غرس القيم الروحية فى نفوس الأفراد كما تعمل على تهذيب الإرادة وتربية السلوك الإنسانى وتنتشل الإنسان من دنس الرذيلة إلى عالم

(١) Ibid . P.562 .

(٢) Ibid . P.565 .

(٣) زكريا إبراهيم " دراسات فى الفلسفة المعاصرة " ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

الفضيلة ، والرجل الفاضل هو إنسان حر لا يعرف الخضوع الأعمى أو الموافقة الاستسلامية لأنه ينشد الخير وفقاً لما يرى أنه الحق ، لا وفقاً لما يقضى به العرف أو أى رأى آخر مسبق ، فالوعى الخلقى لا يمكن أن يقوم إلا على دعامة من الوعى العقلى وكأن برنشفك يجمع بين الإرادة ونور العقل على طريقة سقراط فى قوله الفضيلة علم والرذيلة جهل ولكن برنشفك لا يقتصر على القول بأن الجهد الأخلاقى كله ينحصر فى الوعى العقلى القائم على إدراك الحقيقة الأزلية الأبدية بل يؤكد أيضاً أن هذا الوعى العقلى هو مبدأ الحكمة الأخلاقية التى تضع شتى التكنينات العقلية الفعالة فى خدمة غاياتها وأهدافها " ولكن هذه التكنينات تستلزم بلا شك تربية الإرادة وحسن سياسة الحرية " (١) .

وبذلك ترتبط التربية بالقيم الإنسانية عند برنشفك كما بينت ذلك الدراسة عنده وعند غيره من الفلاسفة المثاليين المعاصرين أمثال برجسون ولالاند وكرونتشة .

(١) المرجع السابق ، ص ٩٨ .